التراث

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية
المجلد الثامن - العدد الثالث - 1399 - 1979

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين شيركوه

في شعر البحتري

دراسة في كتاب ابي العلاء المعري: عبث الوليد

بقلم

عبد الوهاب محمد علي العدواني

كلية التربية ـ جامعة الموصل

من تحصيل الحاصل الاشارة الى شاعرية ابي عبادة البحتري (ت ٢٨٤هـ) وقد اجمع مؤرخوه على فضله وادبه وفصاحته وجودة شعره ، وذكروا ان بعض اهل عصره كان يقدمه على ابي تمام بادىء الراي ، ويختم به الشعراء ، ولم يكن البحتري نفسه ليرضى هذه التقدمة ، حتى انه اجاب بعض مكلميه في ذلك بقوله ـ وقد قال له : ان الناس يزعمون انك اشعر من ابي تمام ـ : « والله ما اكلت الخبز الا به ، ولوددت ان الامر كما قالوا ، ولكني والله تابع له لائذ به ، نسيمي بركد عند هوانه ، وارضي تنخفض عند سمائه »(١) ، وكان يتشبه به في مذهبه الفني، ويحذو حذوه في البديع، ويراه اماما ويقول في الفرق بينهما قولا منصفا : « جيده خير من جيدي ، ورديئي خير من رديئه »(٢) ، وقد استوفى ابو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠ في كتابه : (الموازنة) كثيرا من وجوه صناعتهما الشعرية ، دون ان يفصح بتفضيل احدهما على الآخر ، وقال : « ولكني اقارن بين قصيدة وقصيدة من شعرهما ، اذا اتفقتا في الوزن والقافية واعراب القافية ، وبين معنى ومعنى ، ثم اقول : ايهما اشعر في تلك القصيدة ، وفي ذلك المعنى ؟ ، ثم احكم انت حينئذ ان شئت ـ على جملة ما لكل واحد منهما ، إذا احطت علما بالجيد والرديء »(٣) ، وليس من همنا الافاضة في هذه المسالة ، وحسبنا منها الالماح الى منزلة البحتري ؛ وقد ادرك نقاده من مستواه الفني ما جعلهم يرفعونه الى منزلة ابي تمام ، وحسبه مكانة ان وصفوا شعره بسلاسل الذهب ، وعدوه في الطبقة العليا من الشعراء(٤) ، وذكروا ان ابا العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) خصه بالشاعرية ، وخص ابا تمام والمتنبي بالحكمة ، وقد سألوه المفاضلة بين الثلاثة(٥) ، وشاعريته لم تكن لتحمل المعري على هذا الحكم الجريء ، لو لم تكن من الثراء والامتياز والقوة على مستوى ، استرعى نظره ولفته بعنف ومباشرة ، وشهادة الشاعر للشاعر مسالة جديرة بالتقدير ، لانها تصدر عادة عن دراية بفن الشعر ، وما ينبغي له من امارات الامتياز ودلائل الاعجاز الفني والجمالي .

وحين انتهى المعري الى هذا الحكم ؛ كان قد خبر شعر الثلاثة في تقديرنا خبرة عميقة ، وعرفنا في جملة مؤلفاته انه شرح دواوينهم شروحا مستقلة فاملى على شعر المتنبي كتابه : (معجز احمد) ، وعلى شعر ابي تمام : (ذكرى حبيب) ، وعلى شعر البحتري : (عبث الوليد) ؛ « وتكلم على غريب اشعارهم ومعانيها ، ومآخذهم من غيرهم ،

(١) معجم الادباء ١٩ : ٢٤٩ .
(٢) اخبار البحتري : ٦٧ .
(٣) الموازنة ١ : ٧ .
(٤) وفيات الاعيان ٦ : ٢٣ .
(٥) م . ن ٦ : ٢٢ ، وينظر : شاعرية الوليد بن عبيد : ٦٤ ـ ٧٠ .

WWW.ATTAWEEL.COM

وما اخذ عنهم ، وولى الانتصار لهم ، والنقد في بعض المواضع عليهم ، والتوجيه في اماكن خطئهم»[6] بدراية العالم والشاعر ، وما يضطلع بهذه الاعمال قارىء اعتيادي في شعر هؤلاء ، بل ان ما فعله ابو العلاء صادر عن نظر متلبث دقيق في اشعارهم ، ترفده ثروة لغوية وادبية ، يقدرها حق قدرها دارسو آثاره ، والمعنيون بتراثه الفكري في مجالاته المختلفة .

وقبل الاخذ في تلمس حدود موقفه من البحتري ، نقف مليا عند عنوان كتابه : (عبث الوليد) ، لنستطلع الدافع الذي دفعه الى اتخاذ هذا الاسم ذي الدلالة النقدية العامة ، وقد اشعرنا (معجز احمد) باكباره للمتنبي ، واشعرتنا (ذكرى حبيب) بحبه لابي تمام ، واول ما يبدهنا به (عبث الوليد) استهانة بالبحتري وشعره ، على غير ما هو معروف عنه من اجلال له واقرار بشاعريته المطلقة . والمعري قد استعار هذا العنوان من بيت للبحتري نفسه :

إن الخطوب طوينني ونشرنني
عبث الوليد بجانب القرطاس[7]

وقال بعض الباحثين : انه قد اشتهر في شعره بمعابثة البحتري[8] والتعريض به ، فقال :

ذم الوليد ولم اذمم جواركم
فقال : ما انصفت بغداد حوشيا
فان لقيت وليدا والنوى قذف
يوم القيامة لم اعدمه تبكيتا[9]

مشيرا الى قول البحتري :

ما انصفت بغداد حين توحشت
بنزيلها وهي الحلل الانس[10]

وقال ايضا :

وقال الوليد : النبع ليس بمثمر
واخطأ ، سرب الوحش من ثمر النبع[11]

مشيرا الى قوله البحتري :

وعيرتني سجال العدم جاهلة
والنبع عريان ما في عوده ثمر[12]

ثم اننا لا نجد في كتابه هذا شيئا كثيرا من جيد البحتري ، حتى انه قد اختار بيتين اثنين فقط من قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى مما يدل على انه قد اقتصر من شعره على ما فيه من الغريب حسب[13] ، فهو اذن لا يعطينا صورة كاملة او قريبة من الكمال عن موقفه من البحتري الشاعر، واذا كان بعض النقاد قد اخذ على البحتري اخطاء في الفاظه ومعانيه ، فذلك ما لا يخلو منه شعر شاعر ، وهي في جملتها قليلة ، لا تحط من شان انتاجه الشعر الضخم[14]، فإن ما اخذه المعري عليه لا يخرج عن هذه الدائرة في الاعم الاغلب ، ومن الموافقات ان يكون اسم البحتري وليدا ، ومن شان الوليد ان يعبث ، او يعبث به محبوه ، ولم يكن المعري ليتهم البحتري بالعبث ، ولكنه اراد ان يعبث به ، وقد وقف على اشياء من سقطاته ، فاستحب التنبيه عليها في كتابه هذا ، فغلب عليه الطابع اللغوي والنحوي ، وقل فيه النقد الادبي بمفهومه الدقيق .

قال الآمدي في معرض دراسته لاضطراب الاوزان في شعر البحتري : « ما رايت[15] شيئا مما عيب به ابو تمام الا وجدت في شعر البحتري مثله ، الا انه في شعر ابي تمام كثير ، وفي شعر البحتري قليل . فمن ذلك اضطراب الاوزان في شعر ابي تمام . وقد جاء في شعر البحتري بيت هو عندي اقبح من كل ما عيب به ابو تمام في هذا الباب ، وهو قوله :

ولماذا تتبع النفس شيئا
جعل الله الفردوس منه بواء »[16]

وقد ذكر المعري هذا البيت ايضا ، واشار الى ان ابن العميد (ت ٣٦٠هـ) قد اصلحه ، فاحل : (الخلد) موضع : (الفردوس)[17] ، ولكنه لم يفصل القول في وجه ما عيب به هذا البيت من الناحية العروضية ، وعمد الآمدي الى تحليل هذا

(٦) م . ن ١ : ١١٤ .
(٧) ديوان البحتري ٢ : ١١٧٦ .
(٨) الكلام في شعر البحتري وابي تمام : ٧١ .
(٩) شروح سقط الزند ٤ : ١٦٠١ ـ ١٦٠٢ .
(١٠) الديوان ٢ : ١١٢٢ .
(١١) شروح سقط الزند ٣ : ١٢٤٨ .
(١٢) الديوان ٢ : ٩٥٤ .
(١٣) الكلام في شعر البحتري وابي تمام : ٧١ .
(١٤) البحتري : ٦٤ .
(١٥) الموازنة ١ : ٢٨٦ .
(١٦) الديوان ١ : ٤٠ .
(١٧) عبث الوليد : ٢٧ . ورواية البيت فيه : ولماذا تكره النفس ...

الوجه مشيرا الى ان البيت من البحر الخفيف الذي وزنه :

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن
فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

وتقطيعه :

ولماذا	تتبعْنَ	نفسيا
فعلاتن	مفاعلن	فاعلاتن
جعللاهل	فردوسمن	هبواء
فعلاتن	مستفعلن	فعلاتن

فحذف الف (فاعلاتن) الاولى والثانية والاخيرة ، فصارت (فعلاتن) ، وسين (مستفعلن) الاولى ، فصارت (مفاعلن) ، وذلك كله زحاف جائز ، وزاد في البيت سببا ، وهو حرفان : الهاء من اسم الله عز وجل، واللام من لفظ الفردوس[18] وقد وقف المعري على اشياء اخرى من هذا القبيل وقال : « جاء ابو عبادة في شعره بمثل هذا في غير موضع ، من ذلك قوله :

واحق الايام بالحسن ان يؤ
ثر عنه يوم المهرجان الكبير[19]

وتقويمه : ذو المهرجان الكبير ، او نحو ذلك : وهذا كسر متجانس ، لانه زيادة حرفين ، الاول متحرك والثاني ساكن في الوزن الذي يسمى الخفيف[20] » ، وهو البحر الذي رصد فيه المعري على البحتري اكثر من كسر[21] .

ونستبق المناسبة فنشير الى ان البحتري في استعمالاته اللغوية قد تمتع في نظر المعري بجراة ملحوظة ، ساعدته على تفادي بعض البدوات العروضية التي قد تعرض في صياغة بيت سليم الايقاع ، ونبه على انه كثيرا ما يستعمل نوعا خاصا من الزحاف ، هو القبض[22] ، الذي هو حذف خامس الجزء اذا كان ساكنا[23] في : فعولن ومفاعيلن فقط ، ولكنه في قوله :

(18) الموازنة 1 : 287 .
(19) رواية البيت في الديوان 2 : 887 :
وكان الايام اولى بالحسـ ـن عليها ذو المهرجان الكبير
(20) عبث الوليد : 27 .
(21) م . ن : 201 .
(22) م . ن : 76 .
(23) ينظر : المعيار في اوزان الاشعار : 26 .

ومن ابرح الاشجان ابراح وجدنا
على معهد ماووفة وفتاح[24]

قد تجنبه بلفظة خارجة على القياس اللغوي ، وقال : « ماووفة ، ويحتمل ان يكون قالها كذلك ، وانما القياس ، مؤوفة ، لانه يقال : ايفت الاشياء فهي مؤوفة ... واللفظ الذي استعمله ابو عبادة يتخرج على بعض الوجوه ... ولو قال : مؤوفة على ما يوجبه القياس ، لكان سالما في الوزن ، وقد استعمل ابو عبادة مثل هذا الزحاف كثيرا »[25] .

ومن نماذج هذه التعادلية بين تناسب العروض والجراة في الاستعمال اللغوي قوله :

وقائلة والدمْ بصبغ دمعها
رويدك يا بن الستعشرة كم تسري[26]

فقد شدد (الدم) ، فقال المعري : « تشديد الدم رديء جدا ، ولو كان في قافية كان اسهل ، لانهم يقفون على تشديد المخفف ، وانما يحتمل ها هنا ان يؤخذ من : دمّه... دمّا ، اذا طلاه ... فعلى هذا يصح التشديد ، وقد جاء في شعر ابي خراش (الهذلي) في موضع ، يقتضي ان يكون مشدداً ، الا انه في قافية ، والتواني يكثر فيها التشديد ... وهذا الفن من الضرورة انما يكثر في الرجز ، ولم يات به ابو خراش في ارجوزة ، ولكن قال :

ارقت لحزن ضافني بعد هجمة
على خالد والعين دائمة السجم
اذا ذكرته العين اسبل دمعها
وتشرق من تهمالها العين بالدم[27]

... فاما تخفيف الدم في هذا الموضع ، فيخرج بالشاعر من وزن الى وزن ، وذلك قبيح ، فاما بيت ابي عبادة اذا خفف فيه الدم ، فانه يحدث فيه زحاف ، لم تجر عادة المحدثين بمثله ، وقد زاحف ابو عبادة في مواضع كثيرة زحافا ، ليس من هذا الجنس ، وكذلك حبيب بن اوس »[28] ، فلم يعف ابا تمام من هذه النقدة ، وكثيرا ما اشار الى متابعة البحتري لابي تمام في وجوه من شعره[29] ،

(24) الديوان 1 : 55 ، وفيه : ماوولة : مصابة بافة ، وفتاح : جمع فتحة ، وهي راحة اليد .
(25) عبث الوليد : 76 .
(26) الديوان 2 : 1081 ، وفيه : والدفع .
(27) ينظر : شرح اشعار الهذليين 3 : 1223 .
(28) عبث الوليد : 120 ، وتنظر : الموازنة 1 : 287 .
(29) م . ن : 126 ، 130 .

وخاصة في الفاظه(٣٠) ، وصفوة القول عنده في زحافاته : انه يستعمل هذا الفن ـ كما سماه ـ كثيراً في قصائده ، وقلما تخلو اوزانه من ذلك ، لانه مذهب العرب في اشعارها ، وحسّن ذلك عنده ، ان ابا تمام كان ربما جاء به(٣١) : فابو تمام على هذا اسوة فنية للبحتري حتى في هفواته ، وهذه هي غاية المتابعة ومبلغ التقليد : وهما من ابرز المآخذ التي تمثل امامنا في نقد المعري للبحتري والامثلة على ذلك كثيرة ، منها تعقيبه على قوله :

مهلا فداك اخوك ذو الهيته
عن لهوه وشغلته عن غمضه(٣٢)

« ذو الهيته : لغة طيء ؛ وانما اتبع ابا تمام ، لانه كان يقفو اثره »(٣٣) وحين خفف البحتري (امراته) في قوله :

غدت امراته ولها علينا
ولايةجائر فيها قسوط(٣٤)

قال : «امراته بالتخفيف جائز رديء ، وانما يكثر في اشعار المحدثين ، ولكن ابا عبادة سممه في شعر ابي تمام فاتبعه »(٣٥) .

وعودا على متقدم ، نشير الىانجراته اللغوية دفعته في بعض الاحيان الى ضروب من الضرائر الشعريةالمعروفة ، كتشديد الخفيفومد المقصور، ففي قوله :

واتاه هول الود بعدك فانثنى
يدعوك واللكام دون دعائه(٣٦)

شدد الكاف في اللكام ، مع ان المعروف فيها هو التخفيف ، ولكنه قد اجترأ على ذلك كما ذكر المعري ؛ لان التداخل وارد في اللغة بين صيغتي : فعّال وفعال ، وبالتشديد وردت القراءة القرآنية في قوله تعالى (شيء عجاب)(٣٧) ، وقال الراجز :

جاء لصيد عجب من العجب
ازبرق العينين طوّال الذنب(٣٨)

ومد (الظما) في قوله :

وفيها ما ترد به الظ
ماء وتذهب السفبا(٣٩)

ورأى المعري هذا المد رديئا ، وقال : « هو كثير الجراة على مثل هذه الاشياء ، وانما يتبع ابا تمام في كثير مما يستعمل ، وكانه اخذ مد الظما من قوله :

يكفيكه شوق يطيل ظماءه
فاذا سقاه سقاه سم الاسود(٤٠)

وربما ركب بعض الضرائر القبيحة كاسكان آخر الفعل الماضي ؛ جرى ذلك في قوله :

هاكها قال هاتها قلت خذها
فأخذّها بكفه ثم اغفى(٤١)

وهو رديء جدا ؛ لانه لم يجيء في شعر فصيح (٤٢) ، فلم يعرض له دارسو ضرائر الشعر لانعدام نماذجه القديمة ، مع ان تسكين المفتوح من ثاني الفعل الماضي وارد ، ذكر القزاز القيرواني (ت ٤١٢هـ) بعض شواهده ؛ كقول الشاعر :

وقالوا ترابيٌ فقلت : صدقتم
ابي من تراب خلّقه الله آدم

يريد : خلقه الله(٤٣) . غير ان المعري لم يغل في مواخذة البحتري على ضروراته الشعرية ، لعلمه ان هذه الضرورة انما جازت في كلام الشعراء لعلل لغوية ونحوية ، لا يصعب على الدارس سبيل الوصول اليها ، وفحصها والاقتناع بها ؛ ولكنها تبقى من الوجهة الفنية عيبا من عيوب الشعر وسقطة من سقطاته ؛ ومن هنا كان استعمال ما لا يؤدي اليها اولى مما يؤدي اليها(٤٤) ؛ واذا كان القدماء قد فرقوا بين ضرورات الشعر ؛ فجعلوا بعضها مقبولا والاخر قبيحا ، ولاشك ان بعضها قد وقع في شعر القدماء نتيجة خطأ في الرواية ، ولذلك بدا غريبا غير مستحب ، فقد ابى الشعراء المحدثون الانتفاعبها في نظمهم، واقتصروا ـ كما قال الدكتور ابراهيم انيس ـ في شعرهم على النوع المقبول منها

(٣٠) م . ن : ٦٠ ، ١٢١ ، ١٨٦ ، ومواضع كثيرة اخرى .
(٣١) م . ن : ١٨٢ .
(٣٢) الديوان ٢ : ١١٩٧ .
(٣٣) عبث الوليد : ١٢٦ .
(٣٤) الديوان ٢ : ١٢٢٦ .
(٣٥) عبث الوليد : ١٣٠ .
(٣٦) الديوان ١ : ٢٨ ، واللكام :
(٣٧) سورة ص : الآية ٥ ، وينظر : زاد المسير في علم التفسير ٧ : ١٠٢ ـ ١٠٣ .
(٣٨) عبث الوليد : ٢١ .
(٣٩) الديوان ١ : ٢٦٩ .
(٤٠) عبث الوليد : ٦٠ ، وينظر : شرح الصولي لديوان ابي تمام ١ : ٤٤٩ .
(٤١) الديوان ٣ : ١٤٢٨ ، وفيه : قال لا استطيعها ثم اغفى .
(٤٢) عبث الوليد : ١٤٩ .
(٤٣) ما يجوز للشاعر في الضرورة : ٨٢ .
(٤٤) الضرائر وما يسوغ للشاعر دون النائر : ١٩ .

مثل : قصر الممدود ، وتحريك المضارع المجزوم او الامر المبنى على السكون بالكسر ، والتغيير من الاعلام بتنوينها أو منعها من الصرف ، الى غير ذلك مما هو مألوف لمن حاولوا نظم الشعر(٤٥) ، بيد ان المعري قد وقف على كثير من هذا القبيل في شعر البحتري ، ورأى ان له مذهبا لغويا قوامه متابعة الغالب في كلام العرب(٤٦) غير انه قد يلجأ احيانا الى استعمال ما لم يرد في الشعر القديم ، او ينقل فيه، فصرف الممنوع من الصرف قليل جائز باجماع العلماء ، الا انه قلما يتردد في ذلك الشعر(٤٧) ؛ وربما كانت بعض نماذجه مفقودة فيه ، ووجدت من بعد في الشعر ، كما فعل البحتري(٤٨) في غير موضع ؛ من ذلك قوله :

فللرقة البيضاء يوم اجتماعنا

يد لك بيضاء يقل لها حمدي(٤٩)

فصرف : بيضاء ، فقال المعري : « وهذا الفن من صرف ما لا ينصرف قليل ، وانما يكثر فيما كان بعد الف جمعه حرفان ، مثل : مساجد ، او ثلاثة ، مثل قناديل ؛ فأما مثل : حمراء وصفراء فذلك فيه قليل جائز باجماع العلماء ، الا انه قلما يتردد في الشعر القديم »(٥٠) ، ومناط جوازه عند النحاة أن صرف ما لا ينصرف رد للاسم الى اصله فهم يشيرون الى أن حق كل اسم في الاعراب ان يكون منصرفا ، وانما منعت بعض الاسماء من ذلك لعلل فيها ، فاذا اضطر شاعر جاز له صرف ما لا ينصرف ، لانه يرده في ذلك الى اصله(٥١) ، ومن الشعراء من يقتصد في هذا ، ومنهم من يتوسع ؛ فيصرف من الاسماء ما ندر وروده منصرفا في الشعر القديم كالاسم الممدود في البيت المذكور .

بعد ما تقدم فان البحتري .. كما مثل امامنا من خلال كلام المعري ـ لم يكن ليسرف في جنوحه الى مثل هذه المفارقات اللغوية ، بل كان في لغته ميل الى متابعة المسموع من كلام العرب ، ونزوع واضح الى الفصاحة ، لا تثلمه جرأته اللغوية التي وقفنا عندها فيما سبق ؛ ومن امارات هذا الميل ادخاله الهاء على المصادر ، كما في قوله :

اجد لنا منك الوداع انتواءة

وكنت وما تنفك يشغلك الشغل(٥١)

فقال المعري : « ابو عبادة يدخل الهاء على المصادر كثيرا ، وقلما يوجد ذلك في اشعار المحدثين ... وادخال الهاء على المصادر عريق فصيح ، كقولهم : انقطع الوتر انقطاعة ، وانشد سيبويه :

طرن انقطاعة اوتار محظربة

في اقوس نازعتها ايمن شملا»(٥٢)

ومثل هذه الظاهرة دقيقة من دقائق اللغة ؛ دل وجودها في شعر البحتري على اثالة لغته في الفصاحة ، فضلا عن ظواهر اخرى لا سبيل الى اطالة الكلام بعرض نماذجها ، وحسب البحتري رفعة في فنه ، ان له في شعر عجائب ؛ كما قال ابو العلاء(٥٤) ؛ فقد كان واسع البحر في القريض(٥٥) ؛ وينسحب هذا الحكم على لغته ايضا . ومن جملة ما نشير اليه في هذا المجال محاولات الاستفادة من المقترضات اللغوية ؛ التي دخلت الى العربية دخولا متعدد الاسباب ، فافاد منها الشعراء افادات دلالية وجمالية واسعة ، وقد ادرك المعري بعض ملامحها في شعر البحتري ، ففي قوله :

وغدوة تنين المشارق اذ غدا

فبث حريقا في اقاصي المغارب(٥٦)

يشير المعري الى ان « التنين قليل التردد في اشعار العرب ، وانما يوجد في الاخبار المتقدمة الموجودة مع اهل الكتب السالفة ؛ واذا فسروه ، قالوا : التنين : حية لها سبعة ارؤس ؛ وهم يشبهون الرئيس بالحية ، فأراد ابو عبادة المبالغة ؛ فشبه الممدوح بالتنين »(٥٧) مضاة منه ابتداء على التشبيه بالحية على طريقة العرب ، مع استعارة صورة الحيةمن غير تراثهم اللغوي ، تعميقا للصورة ووصولا بها الى درجة من المبالغة ؛ لا تصل اليها غير هذه اللفظة المقترضة .

واذا كان المعري في تأليفه الثلاثة على اشعار

---

(٤٥) موسيقى الشعر : ٣٢١ .
(٤٦) عبث الوليد : ٦٩ ـ ٧٠ .
(٤٧) م . ن : ٩٣ .
(٤٨) م . ن : ٩٤ .
(٤٩) الديوان ١ : ٥٥٥ .
(٥٠) عبث الوليد : ٩٢ .
(٥١) ما يجوز للشاعر في الضرورة : ٦٠ ، وينظر : الانصاف في مسائل الخلاف ٢ : ٩٢٠ ، الضرائر : ١٢٤ .
(٥٢) الديوان ٣ : ١٦٧٢ .
(٥٣) عبث الوليد : ١٧٥ ، وينظر : كتاب سيبويه ٢ : ١٩٤، والمحظربة : الشديدة الفتل .
(٥٤) م . ن : ١٥٧ .
(٥٥) م . ن : ١١٧ .
(٥٦) الديوان ١ : ١٧٧ .
(٥٧) عبث الوليد : ٣٧ ،وفيه آخر البيت : اقاصي المراكب، تحريف .

ابي تمام والبحتري والمتنبي قد نقد ووجه الاخطاء وانتصر للشعراء ، فان اكباره لفن هؤلاء ماثل في نقداته ، التي صوبها الى ابياتهم المفردة المجتزاة من قصائدها ، ولم يعطنا مثالا على موقفه من القصائد والمقطعات ، على ما يستوجبه النقد الادبي بمفهومه الحديث ، فالمعري في هذه الكتب ـ ونعمم عليها القول من خلال فحصنا لعبث الوليد ، وهو الاثر الوحيد الذي اطلعنا عليه من الثلاثة ـ يمثل وجهة نقدية ، كانت سائدة معروفة عند النقاد العرب ، تتناول البيت المفرد . فتحكم عليه احكاما لغوية ودلالية وفنية ، تختلف مقوماتها وعناصرها بين هذا الناقد وذاك ، واذا كنا قد عرضنا فيما تقدم لموقف المعري من صياغة البحتري وضروراته ووجوه من لغته ، فان نقده لمعانيه مرتبط ارتباطا وثيقا بهذه الامور ايضا ، تقديرا لموقع الكلمة في السياق ، وما تثيره من الماحات معنوية ، يقدرها النقاد اللغويون حق قدرها ، وينظر اليها ارباب النقد الادبي من زوايا سياقية وجمالية كثيرة ، تعكس لهم ملامح الفن في الصياغة الشعرية ، وما يمكن ان تصل اليه هذه الصياغة بالفاظها المفردة ونظمها التركيبية من معان جمالية ودلالات . وفي وقفات المعري على الفاظ البحتري تمثيل واضح لنظرات النقد اللغوي من حيث تقديره لاشراقات اللفظ وقيمه الدلالية القريبة والبعيدة والمحتملة . فحين نظر المعري في قول البحتري :

وما دول الايام نعمى وابؤسا
باجرح في الاقوام منه ولا اسوى(٥٨)

علق عليه بقوله : « اسوى تسامح من ابي عبادة... وانما القياس : ولا آسى ، وما علمت ان احدا استعمل هذه اللفظة التي استعملها ... وكانه قال : ولا اوسى ، ثم نقل الواو الى موضع العين واذا بنا في : آسا ياسو ... وقد ابدع في استعماله هذه الكلمة »(٥٩) ، لانه تصرف بهذه الصيغة من معنى الاساءة الى معنى العناية والمعالجة ، لان القافية المقصورة لا تحتمل : الاسوء مهموزا الحاقا بالاجرح ، وتخفيف الهمز خرج باللفظة من جذر لغوي الى جذر آخر ، فترتب على هذا الاجراء الصرفي لمحة معنوية جميلة ، لا تهتدي الى مثلها بدوات الاستعمال اللفظي في الشعر ، ومن هنا عدها المعري في تصورنا من ابداعات البحتري ، وان كانت في مبدئها اللغوي مما يجترحه في شعره من التسامح والرخص ، واقتدار الشاعر هو الذي تدين له اللغة طواعية ومرونة واستجابة للمرامي الفنية والغايات المعنوية ، شريطة الا يصل ذلك الى حد العبث بجمالياتها وضوابطها .

واستكمالا لما تقدم ، فقد عرفنا ان الناس قد درجوا في استعمالاتهم المعتادة على المطابقة بين الرحب والضيق ، ولكن البحتري في قوله :

كريم اذا ضاق الزمان فانه
يضيع الفناء الرحب في صدره الرحب

قد استعمل : يضيع ، استغناء عن تضمين حرف الجر معنى الظرف : عند ، فعلق ابو العلاء : « كان في النسخة ـ يعني : النسخة التي بين يديه من ديوان البحتري ـ : يضيق الفضاء الرحب ، وقد يحتمل هذا المعنى على ان تكون : في مؤدية معنى : عند ، كانه يضيق الفضاء الرحب اذا قيس بصدره ، ويضيع ابلغ في المعنى»(٦٠) ، فاشار الى ان الشاعر اختار من اللفظ ما هو قادر على تحقيق انارة دلالية جميلة في السياق ، تاكيدا على تفاوت الالفاظ في قدراتها على اداء المعاني والشاعر المحسن من يستطيع ان يضع اللفظ المناسب حيث تكون له دلالة بليغة مشرقة مثيرة ، ووجه الاثارة في استعمال : يضيع ، في موضع : يضيق ، ان جعل الفضاء الرحب لا يرى له وجود في صدر الممدوح لضآلته قياسا اليه ، هذا من طرف ومن طرف آخر ، فان المهم في البيت هو الصدر لا الفضاء ، ومن هم الشاعر ان يصف الصدر بالسعة لا الفضاء بالضيق ، فيقدم مهما على اهم من جزئيات الصورة اقول هذا من خلال تقديري لمنطق التصوير في الشعر العربي القديم ، ولا يمكن ان ينسحب مثل هذا على مذاهب النسيج الشعري في معاييرها الحديثة ، اللفظية والتركيبية والدلالية .

اما تحليل معاني البحتري فلم يعن به المعري عناية واسعة ، وهو يضع شرحا لغويا ونحويا ان صح التعبير ، وحين يريد ان يقف عن معنى من معانيه وقفة تحليلية ، لا يصدر في ذلك عن مبدا بعيد عن دائرة الالفاظ واثاراتها ايضا ، تشركها احيانا عبارة شعرية ثرية ، فقد انتبه مثلا في البيت التالي :

فغدوت ذا بر لديك ونائل
ورويت من اهل لديك ومرحب(٦١)

---

(٥٨) الديوان ١ : ٥٦ .
(٥٩) عبث الوليد : ٢١ .
(٦٠) م . ن : ٢٥ .
(٦١) الديوان ١ : ٨١ ، وفيه : فشبعت من بر ...

الى ثلاثة معان محتملة ، « احدها : ان يكون يريد به كثرة الترحيب من قوله : مرحبا واهلا ، وليس هذا بفائدة للممدوح ، الا انه يدل على البشر والكرامة . والثاني : ان يكون اراد : اني من قولك لي اهلا ومرحبا (قد) رويت ، وهذا كما يقال للرجل : اذا رأيتك فقد استغنيت . والثالث : ان يعني كونه في اهل ، اومن ينوب منابهم ، وفي مرحب أي : محل واسع[٦٢] ، وهذه التوجيهات تشير في مجملها الى قدرة على اعطاء عبارة شعرية ، من شأنها ان تثير في نفس المتلقي وجوها من المعاني مقصودة وغير مقصودة ، والمعري في تأكيده على تعدد معاني البيت الواحد ، انما يمنح الشاعر امارة من امارات الصياغة الشعرية الثرية ، يصدر في تحديدها وتقويمها من اعجاب خاص بالبحتري ، دفعه في بعض مقولاته الى الاعتراف له بالشاعرية المطلقة دون صاحبيه ، ابي تمام والمتنبي ، بل انه لا يحمل ابياته وحدها هذه المعاني المتعددة ، بل ان لفظته احيانا تلعب دورا مزدوجا او مركبا في وظيفتها السياقية ، ففي قوله :

شكرت السحاب الوطف حين تصوبت
اليه فادت ماءها حين ادت[٦٣]

راى المعري تكرار الفعل محتملا لمعنيين ، احدهما ان يكون من الاداء ، وقال : « وهذا اشبه بأبي عبادة » ، يعني : اشبه بمذهبه في استعمال اللغة في اطار دلالتها المانوسة ، والآخر : ان يكون بمعنى : حنت ، وقال : « وهذا اجود في نقد الشعر »[٦٤] ، لما فيه من ظلال معنوية ، لا تحصل لدينا من خلال اللفظ بمعناه الاول ، على الرغم من اعتبار ميل البحتري للدلالات اللفظية المانوسة منقبة من مناقبه الفنية العالية ، وانما فضل المعري اللفظة بمعناها الثاني ، وكأن السحاب الوطف ، وقد صوبت ماءها اليه ، فعلت ذلك من حنينها وشوقها الى الممدوح ، وان يحتمل اللفظ معنى الحنين ، ارفع بكثير من معني الاداء في تمثيل المعنى الكلي للبيت ، وهذه المفاضلة في حقيقتها مفاضلة بين القريب والبعيد من ايماءات الرمز اللفظي الواحد ، وطواعية اللغة — كما اشرنا سابقا — تساعد الشاعر كثيرا على مثل هذه الاثارات الفنية الجمالية .

---

(٦٢) عبث الوليد : ٥٥ .
(٦٣) الديوان ١ : ٢٧٠ .
(٦٤) عبث الوليد : ٦٩ .

والبحتري ذو اللغة المالية بعد هذا كله ، لم يسلم من نقدات صريحة ، اكد فيها المعري على اخطائه الصريحة واستعمالاته العامية[٦٥] ، ومضى كتاب (عبث الوليد) من اوله الى آخره على نقد لغوي ونحوي مستفيض ، جعل منه امثولة من امائيل النقد اللغوي الدقيق عند العرب .

---

(٦٥) م . ن : ٨٤ ، ١٩٩ ومواضع اخرى .

★

المراجع :

١ — اخبار البحتري : للصولي ، تحقيق الدكتور صالح الاشتر ، دمشق ١٩٥٨ .
٢ — الانصاف في مسائل الخلاف : لابن الانباري ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٦١
٣ — البحتري : للدكتور احمد احمد بدوي ، القاهرة ١٩٦٤
٤ — ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، القاهرة ١٩٦٢ وما بعدها .
٥ — زاد المسير في علم التفسير : لابن الجوزي ، دمشق ١٩٦٤ .
٦ — شاعرية الوليد بن عبيد : لحمدي علي ، بغداد ١٩٥٥ .
٧ — شرح اشعار الهذليين : صنعة ابي سعيد السكري ، تحقيق عبدالستار فراج ، القاهرة ١٩٦٥ .
٨ — شرح الصولي لديوان ابي تمام ، تحقيق الدكتور خلف رشيد نعمان ، باريس ١٩٧٧ .
٩ — شروح سقط الزند ، السقط لابي العلاء المعري ، القاهرة — بلا تاريخ .
١٠ — عبث الوليد : لابي العلاء المعري ، ط ٨ ، القاهرة ١٩٧٠ .
١١ — كتاب سيبويه ، طبعة بولاق ، القاهرة ١٣١٦هـ .
١٢ — الكلام في شعر البحتري وابي تمام : لمحمد طاهر الجبلاوي ، القاهرة — بلاتاريخ .
١٣ — ما يجوز للشاعر في الضرورة : للقزاز القيرواني ، تحقيق المنجي الكعبي ، تونس ١٩٧١ .
١٤ — معجم الادباء : لياقوت الحموي ، تحقيق احمد فريد رفاعي ، القاهرة ١٩٢٦ .
١٥ — المعيار في اوزان الاشعار : لابن الحاج الشنتريني ، ط ٢ ، دمشق ١٩٧١ .
١٦ — الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري : للآمدي ، تحقيق السيد احمد صقر ، القاهرة ١٩٦١ .
١٧ — موسيقى الشعر : للدكتور ابراهيم انيس ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٧٢ .
١٨ — وفيات الاعيان : لابن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ .